التلفزيون الرقمي والعلاقات الاجتماعية

د/عبيدة صبطي ا.د طارق هاشم خميس

أ/الخنساء تومي قسم العلوم التربوية والنفسية

قسم العلوم الاجتماعية جامعة بسكرة، الجزائر كلية التربية / جامعة تكريت

مقدمة

لقد شهدت تكنولوجيا الاتصال خلال العقدين الماضيين ولا تزال نموا متزايدا فاق قدرة الأكاديميين ورجال القانون وواضعي السياسات على وضع تصور كامل يحكم أداء هذه التكنولوجيا. وقد شملت هذه التطورات انتشار الأقمار الصناعية والتي أدت بدورها إلى انتشار البث المباشر والشبكات الالكترونية وعلى رأسها الانترنت ومن ثم الاندماج بين تلك التقنيات لتتولد عنها تقنيات أكثر حداثة وسهولة سهلت على القائمين في العملية الاتصالية أساليب الاتصال من ناحية لكنها وضعتهم بدورها أمام تحد أخر وهو البحث الدائم عن الجديد والحديث والمتطور.

فازدادت المنافسة بين التقنيين والباحثين في هذا الميدان، ومن أكثر التقنيات التي برز دورها في تجسيد الاتصال التفاعلي وتحقيق فرضياته في ميدان الإعلام والاتصال هو ظهور التلفزيون الرقمي الذي يُعد من أكبر وأشمل التغيرات التي واجهها التلفزيون، منذ اختراعه في ثلاثينيات القرن العشرين كصندوق في إحدى زوايا المنزل ويجلس الناس للتحديق في شاشته الزجاجية، هو دخوله العصر الرقمي.

فلم يعد كما خضع لتغيرات جوهرية في المجالات كافة، في مجال إنتاج برامجه، وفي مجال توصيلها إلى المشاهدين وفي مجال المشاهدة ذاتها، صار التلفزيون يستقبل عن طريق الانترنت أو الكومبيوتر الشخصي بل حتى بواسطة الهاتف النقال.

وعليه، فإن دراسة التلفزيون الرقمي وتقنية الاتصال التفاعلي تكتسب أهمية كبيرة في هذه المدة وذلك لأهمية التطورات التقنية بعملية الاتصال وتغيير أساليبها وطرق الجذب والإثارة الجماهيرية المستخدمة فكان لهذه التطورات أثار واضحة في تغيير أساليب الاتصال وأنماطه ولأن إنسان اليوم أصبح يقضي نصف وقته أمام شاشة التلفاز ذلك لما تتيحه له هذه الشاشة من فرص الاختيار والتنوع كان لزاما على الإعلام دراسة تأثيرات هذه التطورات بالوسيلة على المتلقي وقدراته الذهنية ونظرته إلى الحياة وكذلك على علاقاته الاجتماعية.

فالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد شيئا ضروريا بالنسبة لجميع البشر فقد تجد الإنسان نفسه مريضا عندما لا يستطيع التواصل مع الآخرين، ومع دخول التقنيات الحديثة وتعامل الأشخاص مع الأجهزة الرقمية أكثر من تعاملهم مع بعض نشأ عن ذلك معاناة نفسية كثيرة ظهرت في سلوكيات الشعوب وخاصة من لهم طبيعة مادية أكثر من غيرهم.

وعليه جاءت هذه الورقة البحثية لمحاولة التعرف على واقع العلاقات الاجتماعية في ظل التلفزيون الرقمي الذي أسهم في إحداث تغييرات في علاقات الفرد بأسرته، وعلاقات الأسر بالمجتمع.

1.مفهوم العلاقات الاجتماعية

يحتل موضوع العلاقات الاجتماعية مكانة هامة في علم الاجتماع العام، بل أن معظم المؤلفين والعلماء يرون أن العلاقات الاجتماعية هي أساس علم الاجتماع.

وعليه يتألف هذا العنوان من صفة وموصوف، وعليه فلابد من تحديد مفهوم كل منهما وصولا لماهيته وحدوده، وقد تبين لنا مفهوم الصفة (الاجتماعية)، وذلك عند الحديث عن مفهوم(المجتمع) فلا ضرورة للإعادة هنا مع الإشارة لكون هذه الصفة تحمل معنى النسبة للمجتمع وهو ما سنبينه.بقي أن نتحدث عن مفهوم العلاقات وصولا لبغيتنا من هذا الفرع.

جاء في مختار الصحاح(ع ل ق) ، العلق: الدم الغليظ والقطعة منه علقة، والعلقة أيضا دودة في الماء تمص الدم، والجمع علق، وعلقت المرأة حبلت، وعلق الظبي في الحبالة وعلقت الدابة إذا شربت الماء فعلقت بها العلقة، وباب الكل طرب، وعلق به بالكسر علوقا أي تعلق، وعلق يفعل كذا مثل طفق، والعلق بالكسر النفيس من كل شيء وجمعه أعلاق وفي الحديث أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة بضم اللام أي تتناول، والمعلاق والمعلوق ما علق به من لحم أو عنب ونحوه، وكل شيء علق به شيء فهو معلاقة، والعلاقة بالفتح علاقة الخصومة، والعليق بوزن القبيط نبت يتعلق بالشجر واعلق أظفاره في الشيء انشبها، والإعلاق أيضا إرسال العلق على الموضع ليمص الدم ..... وعلق الشيء تعليقا واعتلقه أحبه والمعلقة من النساء التي فقد زوجها قال تعالى (فتذروها كالمعلقة)، وتعلقه وتعلق به بمعنى وتعلقه أيضا بمعنى علقه تعليقا)[1].

بناء على ما تقدم فإن مفهوم العلاقات يدور حول الاتصال والالتصاق والاشتباك والارتباط، وهي من المفاهيم التي تقتضي المفاعلة فلابد لوجود مصلحة تربط بين اثنين فأكثر تخدمهم أو تخدم أحدهم على الأقل لإنشاء علاقة فيما بينهم.

وفي ضوء ذلك يمكن تعريف العلاقات الاجتماعية على أنها "ما يحدث بين الناس – بما لهم من مشاعر وأفكار وأهداف وحاجات- عندما يلتقون مع بعض من جهة، وبينهم وبين الأنظمة والمؤسسات التي تنظم وتحكم وتوجه حياتهم من جهة ثانية، فهي بذلك تتعلق بكل جوانب الحياة الاجتماعية والإنسانية[2] .

كما تعرف بأنها تلك الروابط التي تنشأ بين أفراد المجتمع كنتيجة حتمية لاجتماعهم واتصالهم، وتأخذ هذه العلاقات أشكالا عدة تبعا لنوع المصلحة المراد تحقيقها من هذه العلاقات.

هذا وقد عرفها الدكتور عبد العزيز الخزاعلة رئيس قسم الاجتماع في جامعة اليرموك بكونها: الروابط والآثار المتبادلة بين الأفراد في المجتمع وهي تنشأ من طبيعة اجتماعهم وتبادل مشاعرهم وأحاسيسهم واحتكاك بعضهم مع بعض[3] .

ولأهمية العلاقات الاجتماعية نجد أن بعض علماء الاجتماع قد اعتبرها المكون الوحيد للمجتمع، يقول ماكيفر وبيدج: "وما المجتمع إلا هذه الخلاصة أو النمط المعقد أشد التعقيد، الدائم التغير، والذي يتكون من مجمل هذه العلاقات التي تقوم بين الناس."

في حين نجد أن أليكس أنكلز يقول: "وتخلق العلاقات الاجتماعية كافة تلك الوحدات، وهي التي تمثل في نفس الوقت العنصر المشترك فيها جميعا مما دفع بعض الاجتماعيين إلى الاعتقاد بأنها الموضوع المتميز حقيقة للدراسة في علم الاجتماع، ونحن إن كنا لا نقبل هذا الرأي بالضرورة، إلا أننا نسلم مع ذلك بأهمية وجهة النظر هذه."

وإذا كانت عبارة ماكيفر وبيدج توحي بأنهما يختزلان المجتمع في مجرد العلاقات، إلا أن المطلع على كتابهما المجتمع يدرك أن هذه العبارة إنما تدل على أهمية العلاقات كعنصر في تكوين المجتمع.

أما ما أوردناه من كلام "أنكلز"، فنحب أن نوضح أن العلاقات الاجتماعية، وإن كنا نوافق على أنها تمثل حقيقة عنصرا مشتركا فيها، فالناس فطروا على الميل بعضهم لبعض، والحياة الاجتماعية تقوم على اشتراك الأفراد في أداء الأنشطة التي يتطلبها استمرار المجتمع، ففعالية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الضرورية أوثق كان العمل فعالا ومثمرا.

وعليه تعتبر العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد في مجتمع ما نتيجة تفاعلهم مع بعضهم البعض من أهم ضرورات الحياة. ولا يمكن تصور أية هيئة أو مؤسسة أن تسير في طريقها بنجاح ما لم تسعى جاهدة في تنظيم علاقاتها الاجتماعية. ومن الملاحظ أن العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد تكون[4].

- علاقات اجتماعية وقتية: وهذه العلاقات لها وقت معين بحيث تبدأ وتنتهي مع الحدث الذي يحقق هذه العلاقة ومن أمثلة هذه العلاقة التحية العابرة في الطريق أو العلاقة بين البائع والمشتري[5].

- علاقة اجتماعية طويلة الأجل : وهي نموذج التفاعل المتبادل الذي يستمر فترة معينة من الزمن ويؤدي إلى ظهور مجموعة توقعات اجتماعية ثابتة

، وتعتبر علاقة الدور المتبادل بين الزوجة والزوج أمثلة لمثل هذه العلاقات.

- علاقة اجتماعية محدودة : نموذج للتفاعل الاجتماعي بين شخصين أو أكثر ويمثل هذا النموذج البسيط وحدة من وحدات التحليل السوسيولوجي، كما أنه ينطوي على الاتصال الهادف والمعرفة المسبقة بسلوك الشخص الآخر[6].

ويمكن أن نعرض لأهمية دراسة العلاقات الاجتماعية كما يحددها أولسن، من خلال تحليله لأسباب اهتمام الأفراد والجماعات بضرورة وجود علاقات اجتماعية، وذلك نظرا لوجود مجموعة من الدوافع التي تحفزهم إلى إقامة العلاقات الاجتماعية مثل[7]:

1. الجزء الذاتي: يسعى الأفراد والجماعات إلى إقام علاقات اجتماعية من أجل إشباع رضاهم النفسي مع الآخرين، والتماس التمتع بصحبة الآخرين عن طريق علاقات الصداقة والحب والارتباط بالعمل وغير ذلك من العلاقات المتعددة.

2. الاهتمامات العامة: إن وجود علاقات اجتماعية تخلق نوعا من المناخ الذي يعكس مجموعة من الاهتمامات المشتركة بين الجماعات، وتمد أفرادها بالأساس الاجتماعي، وخلق أهداف عامة يتفق عليها الجميع، علاوة على أن العلاقات الاجتماعية تؤدي إلى وضع نموذج واضح لتفاعل الأفراد من أجل تنفيذ أهداف الجماعة.

3. التوقع والاضطرار: يحدث عن طريق تفاعل الأفراد والجماعات وحدوث نوع من التصرفات والأفعال الإجبارية، التي يجب أن يقوم كل منها تجاه الآخر. ومن ثم تحتوي هذه التصرفات والأفعال على توجيه الأفراد نحو تحقيق الأهداف والاهتمامات المشتركة.

4. الاعتماد المتبادل: تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية، منذ أن ظهر الإنسان على سطح الأرض أو عرفت المجتمعات أو نشأت عليها الأفراد والجماعات يسعون للعيش في حياة جماعية أو حتى شبه منعزلة، إلا أنها - الحياة- تعكس طبيعة الإنسان نحو حبه للعيش مع الآخرين وإقامة علاقات

حتى تكفل له تحقيق الاكتفاء الذاتي لحاجاته الأساسية علاوة على توفير بيئة اجتماعية بها علاقات متنوعة مع الجيران والأهل والأصدقاء وغيرهم.

5. القوة والتنظيم: يستلزم وجود العلاقات الاجتماعية القوة والتنظيم، كعنصران أساسيان لاستمرارية هذه العلاقات وضبط سلوك الأفراد والجماعات، وتنظيم معاملاتهم واتجاهاتهم نحو الآخرين، وهذا ما جاء واضحا في نظرية العقد الاجتماعي وفكرة إنشاء المجتمعات من قبل الأفراد.

ولقد أشارات الدراسات التحليلية التي تناولت بالدراسة والبحث موضوع العلاقات الاجتماعية إلى أنها تبدأ بفعل اجتماعي يصدر عن شخص معين يعقبه رد فعل يصدر من شخص آخر ويطلق على التأثير المتبادل بين الشخصين أو بين الفعل ورد الفعل اصطلاح التفاعل.

لذا لابد أن نفرق بين الفعل الاجتماعي وبين غيره من الأفعال غير الاجتماعية؛ فالفعل الاجتماعي وفقاً لتعريف ماكس فيبر هو: " السلوك الإنساني الذي يحمل معنى خاص يقصد إليه فاعله بعد أن يفكر في رد الفعل المتوقع من الأشخاص الذين يوجه إليهم سلوكه ". هذا المعنى الذي يفكر فيه الفرد ويقصده هو الذي يجعل الفعل الذي يقوم به اجتماعيا. والتفاعل الاجتماعي بما ينطوي عليه من علاقات ناشئة في إطاره، يقوم على أساس مجموعة من المعايير التي تحكم هذا التفاعل من خلال وجود نظام معين من التوقعات الاجتماعية في إطار الأدوار والمراكز المحددة داخل المجتمع فالعلاقات الاجتماعية تشمل كل من عنصري الاحتمال والتوقع، والسلوك المتبادل بينهما[8] .

ونظراً لأن التفاعل الاجتماعي وسيلة اتصال بين الأفراد والجماعات فإنه بلا شك ينتج عنه مجموعة من التوقعات الاجتماعية المرتبطة بموقف معين. وتؤدي العلاقات الاجتماعية إلى ظهور مجموعة من التوقعات الاجتماعية الثنائية؛ الأمر الذي أدي بالباحثين في هذا الصدد إلى تصنيف تلك العلاقات إلى عدة أقسام متمايزة في شكلها.

2. نشأة وتطور التلفزيون الرقمي

لقد حاول المهندس الاسكتلندي "جون لوجيب بيرد" (John L.Baird)، الذي سجلت باسمه براءة اختراع التلفزيون، تقديم صورة تلفزيونية ملونة ومجسمة، لكن صورة كانت تفتقر إلى الوضوح..أدخل العلماء الفرنسيون تحسينات على

الصورة المجسمة، حين ضاعفوا عدد خطوط المسح الإلكتروني للصورة.وجعلوها 819 خطا وينظر المشاهدون إلى الصورة التلفزيونية من خلال نضارة خاصة فتبدو لهم الصورة مجسمة[9] .

كما ساهم التطور التقني في أجهزة الإنتاج التلفزيوني في تحسين الصورة نوعيا، ولكنه أيضا ساهم من جانب أخر في تطوير عملية الإنتاج التلفزيوني، الكاميرا المحمولة مثلا تخطت جدران الأستوديو ليجري التصوير في المواقع الحقيقية ولم يعد حبيس الأستوديو التلفزيوني.

لقد شهد التلفزيون تطورا بطيئا في ظل التقنية التماثلية على طول عقود من الزمن ولكن ما إن حلت التقنية الرقمية حتى صار التطور يسير بوتيرة متسارعة، ولم يمض عقد واحد من الزمن حتى صار التلفزيون التقليدي في مواجهة التغيير.

لم تقتصر التقنية الرقمية على أجهزة الإنتاج التلفزيوني بل امتد ليشمل عملية الإرسال أيضا.بدأ الإرسال الرقمي عن طريق الأقمار الاصطناعية في الولايات المتحدة الأمريكية عام (1994).وبعد ذلك بسنتين أي عام (1996) بدأ في أوروبا واليابان.والإرسال الرقمي ليس فقط عملية استبدال للبث التماثلي بل إن التقنية الرقمية هي تقنية متطورة كبيرة المرونة ولها إمكانات عالية لتلبية حاجات وخدمات مستقبلية من الوسائل التي يحتاج إليها المجتمع المعاصر.

ينظر إلى الإرسال الرقمي على أنه واحد من الحلول التي تساعد على التخلص من أزمة ازدحام الأثير بالموجات والإشارات التلفزيونية، وذلك بسبب الزيادة الكبيرة والمتزايدة في عدد محطات الإرسال التلفزيونية والمحطات الفضائية.إن التحول إلى تقنية الإرسال الرقمية هو الخيار الذي يعول عليه ليس لحل أزمة القنوات بل لإضافة قنوات جديدة أيضا.

في تقنية الإرسال الرقمي يصار إلى تحويل الإشارات الصوتية والصورية إلى بيانات رقمية، ومن ثم ضغطها بطريقة يمكن فيها أن تأخذ خمس أو ست قنوات.الحيز نفسه في الأثير الذي كانت تشغله قناة تماثلية واحدة.أي إنه يمكن تشغيل 20-30 قناة رقمية في الحيز نفسه الذي كانت تشغله أربع أو خمس قنوات تماثلية..ولهذا يستطيع الطبق اللاقط استقبال أكثر من 400 قناة فضائية .

ومن وجهة نظر تجارية تحرر النطاق الترددي الذي يملؤه الآن البث التماثلي كي يمكن بيع ذلك النطاق إلى المؤسسات ذات الطبيعة الاتصالية[10] .

ويوفر البث الرقمي إمكانية كبيرة للصوت أيضا، يمكن تشغيل ست قنوات من الصوت المحيط في جهاز التلفزيون.

لقد فتح العصر الرقمي خيارات جديدة أمام المشاهد، إذ وسع مجالات المشاهدة سواء عن طريق الانترنت أو الكومبيوترات الشخصية المحمولة أو المفكرات الكفية الرقمية وكذلك الهواتف النقالة.

3. بنية العلاقات الاجتماعية وتطوّر تقنيات الاتصال

حظي الاتصال الوسيطي، أي الاتصال الذي يستخدم الوسائط التكنولوجية، بعناية العاملين في مجال العلوم الاجتماعية منذ بداية ظهوره في القرن الماضي، وفي هذا الصدد، رأى فيه علماء الاجتماع الدوركايمي، ولا سيما الهاتف"التلفون"، شكلا من أشكال التكنولوجيا التي تعمل على التضامن العضوي بين أفراد المجتمع.كما وجدوا في الوقت نفسه في شكل أخر من أشكال هذه التكنولوجيا (الاتصال الإذاعي والتلفزيوني) قوة كبيرة في إيجاد حالة من التوازن والتضامن بين أفراد المجتمع عن طريق ما تحدثه بينهم من تصورا جمعية مشتركة.

وأما علماء الاجتماع الماركسي فإنهم يؤكدون أهمية هذه الوسائط الاتصالية بوصفها إحدى أهم الوسائط التي تلجأ إليها الطبقات الحاكمة في مجتمع ما من المجتمعات من أجل فرض سيطرتها وبسط نفوذها وهيمنتها الإيديولوجية على بقية الطبقات الأخرى في المجتمع بصورة دائمة[11].

و أما علماء الاجتماع الفيبري فإنهم يرون في هذه الوسائط أداة فاعلة في دعم العقلانية التي هي برأيهم السبب الرئيس في التغير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الغربية، إذ تعمل هذه الوسائط، برأيهم، على تخفيف القيود التي يفرضها الزمان والمكان على الأطراف المتصلة حين تتواصل فيما بينها، وتختصر الكثير من جهدهم وعنائهم، وبذا، فإنها تسهم في انتشار العقلانية التي يعتقد فيبر، كما أشرنا، أنها قوام النظام الرأسمالي في المجتمعات الرأسمالية.

ويرى الفيبيريون، أن هذا النوع من الوسائط، ولا سيما الإذاعي والتلفزيوني، إنما تعمل على تزويد المجتمع بعناصر الثقافة الرفيعة[12].

ولكن التطور المتسارع في تكنولوجيا الاتصال الوسيطي، وانتشاره في مناحي الحياة كافة بشكل غير مسبوق، كان قد دفع العديد من الباحثين الاجتماعيين إلى إيلاء هذه الوسائط مزيدا من الاهتمام، ودعاهم إلى إعادة النظر في فهمهم لأبعادها الاجتماعية وتأثيراتها في الاتصال الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية.فقد ضعتهم هذه التكنولوجيا أمام مرحلة جديدة من مراحل تطور الاتصال الاجتماعي، لها أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية المختلفة التي لا يمكن تجاهلها أو إدارة الظهر لتأثيراتها السلبية.

فقد غيرت هذه المرحلة، في الحقيقة، مجرى الحياة في الجوانب الثقافية والأخلاقية والفكرية والقيمية والسلوكية والاقتصادية، وغيرت كذلك طرائق تفاعل الناس وتواصلهم إلى الحد الذي يمكن معه القول: أن ما أحدثه هذا النوع من الاتصال من تغييرات جوهرية كان بمنزلة نقطة تحول في تاريخ الاتصال الاجتماعي.وهكذا، إذن، دفعت تكنولوجيا الاتصال الالكتروني الحديثة الكثير من الباحثين الاجتماعيين إلى ايلائها من الاهتمام والعناية.

ويمكن القول: إن المحاولات الأولية لفهم ما أحدثته هذه الوسائط الاتصالية من تغييرات وتأثيرات في حياة الناس وطرائق تواصلهم وتفاعلهم، كانت قد بدأت

في الستينات والسبعينات على يد مارشال ماكلوهان، ودانييل بيل، واستمرت في الثمانينيات على يد دوفلور، وهبرماس وتعمقت في السنوات اللاحقة على يد بعض العاملين في العلوم الاجتماعية ولاسيما "انتوني جيدنز"، و"جون ثومبسون"، و"مانويل كاستلز"، وزجمت باومان، وجيمس سليفن.

فقد كان "بيل"، في الحقيقة، من أوائل علماء الاجتماع الذين خصصوا وقتا كافيا لتحليل الدور الذي يقوم به هذا النوع من الاتصالات في تسريع عملية التغيير الاجتماعي تسهيل التواصل بين الأفراد في المجتمع، فضلا عن جهوده في تحليل التأثيرات الاجتماعية التي تتركها هذه الاتصالات، ولا سيما الرقمية منها، في المجتمع، وأما في الثمانينات فيعد هابرماس من أشهر علماء الاجتماع الذين أسهموا في تقديم تحليل دقيق لهذا النوع من الاتصالات ودورها في التغيير الاجتماعي وذلك من خلال عمله الرائد في هذا المجال.وهو المجال العام[13].

وأما "مانويل كاستلز" فقد كان من بين أوائل العلماء في التسعينات ممن شدّد على أهمية هذا النوع من الاتصالات في جوانب الحياة الاجتماعية جميعها، وعلى الدور الفاعل الذي قامت به، ومازالت، في حياة الناس الاجتماعية، مدخلة المجتمعات المعاصرة إلى عهد جديد هو "عصر المعلومات"، حيث غدت هذه الاتصالات بأشكالها المختلفة، ولا سيما الانترنت تتغلغل في كل منحى من مناحي الحياة اليومية.وترجع أعمال كاستلز، في الواقع، إلى تأكيد الدور البارز والحيوي الذي تقوم به الانترنت في المجتمعات المعاصرة، إذ يرى أن الميزات الفريدة لهذه الوسيلة الاتصالية تجعل منه أعظم منجزات الثورة التكنولوجية في عالم الاتصال الاجتماعي[14].

وفي الحقيقة، فإن التطور المذهل في تكنولوجيا الاتصال الالكتروني، الذي يكاد يفوق الوصف والخيال، جعل العالم الذي نعيش فيه في الوقت الحاضر يفلت منا كما تفلت حفنة الماء من قبضة اليد، ويهرب أمام ناظرنا كما يهرب الخيال، نراه ولكننا لا نقوى على الإمساك به.ولعل عالم الاجتماع المعاصر، انطوني جيدنز، على صواب حين وصف هذا العالم "بالعالم الهارب"[15].

وترى الأدبيات الحديثة في النظرية الاجتماعية أن الاتصال عبر الانترنت نقلنا إلى العيش في زمن ثقافي من نوع خاص، قام "انطوني جيدنز" بتلخيص خصائصه الاجتماعية وسماته الثقافية ببراعة فائقة، وإيجاز دقيق، بما يأتي[16]:

- إن التحولات والتغيرات الاجتماعية والثقافية التي يتصف بها المجتمع المعاصر هي تحولات ذات قوة نابذة وطاردة للأفراد، وذات خصائص ثقافية مشوشة ومضطربة.
- إن الأفراد في المجتمعات التي ينتشر فيها هذا النوع من الاتصالات، هم أفراد مقطعو الأوصال، بسبب استغراقهم وذوبانهم

في خبرات يومية مجزاة ومبعثرة، وتعوزهم الرؤية الشمولية المتماسكة للحياة.

- يشعر الأفراد في هذا النوع من المجتمعات بالعجز وضعف المقاومة وقلة الحيلة في مواجهة العولمة وطغيانها وجبروتها.
- تخلو حياة الأفراد اليومية في هذه المجتمعات من أي معنى، بسبب سيادة أنظمة اجتماعية جافة تفتقر إلى الحياة والديناميكية وتعمل على تفريغ حياة الأفراد اليومية من مغزاها ودلالاتها الاجتماعية الحميمة.

وفي الحقيقة، قد لا تكون الأبعاد الاجتماعية للاتصال الالكتروني والتأثيرات السلبية التي أحدثها في المجتمع الغربي، موجودة في المجتمع العربي بتلك الحدة التي وصفها جيدنز والباحثون الاجتماعيون الآخرون.ومع ذلك فهذا لا يعني أن المجتمع العربي في مأمن منها ومن تأثيراتها السلبية.

4.العلاقات الاجتماعية والتلفزيون الرقمي:تحليل سوسيولوجي للفرص والمخاطر

شهد النصف الثاني من القرن الماضي، وخاصة العقدين الأخيرين، منه ثورة كبيرة في مجال الاتصال تجاوزت الحدود الجغرافية للبلدان والقارات، وقد ساهم في ذلك استخدام الأقمار الصناعية المتعددة للبث الفضائي، وتطور شبكات الهاتف وشبكات المعلومات وإنتاج وترويج أجيال من الحواسيب وظهور تكنولوجيا الوسائط المتعددة، وتكنولوجيات الاتصال التفاعلي.

فقد غيرت هذه الأخيرة حياة الأفراد والأسر والمجموعات، ومثل هذا التأثير الحياة الشخصية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، ويتجه الباحثون المختصون إلى دراسة التغيرات الاجتماعية والثقافية وتناول وسائل الاتصال الحديثة كبيئة فاعلة في هذا التغيير.

وبتركيز نطاق البحث والتحليل علي ماهية العلاقات الاجتماعية في ظل التلفزيون الرقمي، وما قد يتضمنه من فرص كامنة أو في المقابل مخاطر مستترة، يمكن القول بأن ثمة نقاشات محتدمة في الآونة الأخيرة حول الدور الخطير الذي يمارسه التلفزيون الرقمي في عزل الأفراد اجتماعياً وتفكيك العلاقات بين الأفراد في المجتمع، فالأفراد أصبحوا يقضون وقتاً طويلاً في مشاهدة البرامج التلفزيونية بطريقة لافته تسترعي الاهتمام، بما ينطوي عليه ذلك في كثير من الأحيان من حاجة إلى العزلة عن الآخرين خلال فترة التعرض، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى إشاعة حالة من العزلة الاجتماعية، وبالتالي إيجاد نوع من التفكك الاجتماعي،

خاصة في ظل انتشار أنماط جديدة من القيم والسلوكيات المستحدثة في المجتمع العربي كله.

لقد حولت التقنية الرقمية مشاهدة التلفزيون من تسلية خاملة إلى عملية تفاعلية بين طرفي عملية الاتصال، بل هي تجعل المشاهد في موقع السيطرة، حتى أن البعض أطلق على أساليب الاستقبال التي هيأتها التقنية الرقمية، أساليب الحرية.

أما الأساليب القديمة حيث أسلوب الكيبل وأسلوب المحطات الأرضية والمحطات الفضائية فأطلقت عليها أساليب السيطرة والتسلط، حيث كان مديرو تلك الشركات هم من يقرر ما يستقبله المشاهد.بعد أن كان الأسلوب السابق يوفر في أمريكا (50-500 قناة)، يوفر الأسلوب الجديد خمسة ملايين قناة تتدفق عبر شتى وسائل الاستقبال، مثل الانترنت والكومبيوتر الشخصي والهاتف المحمول.وهذا يمنح المشاهد قدرة كبيرة وحرية مطلقة في الاختيار، انه يشاهد كل ما يريد وأين يريد ووقت ما يريد[17].

ومكنت التقنية الرقمية المشاهدين من المشاركة في البرامج التلفزيونية، وتقديم نشاطاتهم الشخصية إلى التلفزيون بعد توصيلها عن طريق شبكة الانترنت خلال كارثة(سونامي في أسيا عرضت الشبكات الإخبارية صورا زودهم بها أشخاص عاديون، حتى إن شركة فوكس نيوز توقعت أن يساهم المشاهدون في الأخبار ويزودوا المحطة بالقصص الإخبارية في بعض الأحيان[18].

وعليه فقد تميز التلفزيون الرقمي بالعديد من المزايا[19]:

1. صورة وصوت عالية الجودة تفوق ما يوفره النظام التناظري ويجعل من عملية المشاهدة مشابهة لقاعات السينما.

2. سهولة التخطيط وإمكانية اللجوء إلى الشبكات أحادية الموجات أي بث البرامج انطلاقا من نقاط متعددة عل الموجة نفسها وغير متوافر في البث التناظري أو التماثلي.

3. يمكن للتلفزيون الرقمي تقديم خدمات وسائط متعددة تشتمل على الصوت والصورة والبيانات والنصوص.

4. توافر خدمات تفاعلية متعددة مثل البريد الالكتروني والانترنت وخدمات التفاعل مع البرامج المعروضة.

5. توافر خيارات متعددة وكثيرة من القنوات والبرامج.

6. إمكانية الحصول على صورة عالية الوضوح حتى لو كان التلفزيون في السيارة أو في القطار وذلك بالتقاء تكنولوجيا التلفزيون وتكنولوجيا الكومبيوتر الشخصي.

7. ساهمت التقنية الرقمية في إلغاء الحدود الفاصلة بين الكومبيوتر والتلفزيون فأصبح بإمكان استخدام التلفزيون الرقمي للقيام بأي وظيفة من وظائف الكومبيوتر وبالعكس.

8. وبفضل هذه التقنية يتمكن المشاهد من متابعة برنامجين أو ثلاثة برامج في الوقت ذاته والمشاركة وشراء المنتجات حيث يؤمن هذا النوع من التلفزيونات صورة نقية وواضحة كما يتيح للمستخدم تسجيل برامجه المفضلة ومشاهدتها في أوقات مناسبة.

وعليه أصبح جهاز التلفزة المادة الاستهلاكية الأكثر رواجا في العالم، فقد تبين من خلال بعض الإحصائيات أن سبعة من مجموع عشرة أسر في العالم يمتلكون جهاز تلفزة.فقد مارست التلفزة أدوارا متعددة داخل الأسرة، فهي رفيقة للأشخاص المتبقين بالبيت كالأطفال الصغار مثلا وكبار السن والأشخاص غير المشتغلين...، وهي نافذة تفتح على العالم الخارجي، وهي كذلك ولفترة غير بعيدة، قطب يجتمع حوله الأسرة لمشاهدة المسلسلات ومتابعة الأخبار.

ولكن ورغم افتقارنا لإحصائيات عربية في هذا المجال فإن جملة من المعطيات المتوفرة تنبئ بأن هذه العادات والاتجاهات بدأت تتغير لأن استعمال هذه الوسيلة أصبحت تخضع للاختيارات الشخصية، وأن استهلاكها أصبح فرديا مما يعني أن فرص اجتماع كل أفراد العائلة أمام التلفزة مع بعضها قد تقلص ورغم افتقارنا لمعطيات خاصة بالمنطقة العربية في هذا المجال فإن الوضع لا يختلف كثيرا عما هو عليه في الغرب باعتبار أن الظاهرة تكتسي بعدا عالميا.

إذ بينت دراسة كندية أجريت حول الموضوع أن معدل عدد الساعات المخصصة لمشاهدة التلفزة تتراوح بين الثلاث والخمس ساعات في اليوم، وقد اعتبرت المشاهدة المطولة للتلفزة كأحد المسببات الرئيسية لتطور عدد الحالات المرضية كالسمنة وتقلص حجم الأنشطة الحركية الجسمية لدى الأطفال والكهول.

كما تقلصت العديد من الأنشطة العائلية التي يساهم في انجازها الكبار والصغار، كالتدريب الأطفال على الاعتناء بالحديقة أو القيام ببعض الأشغال التي لها الأثر الايجابي على تنشئة الطفل وتعويده على المساهمة والمشاركة الايجابية في المسائل الأسرية، أو حتى التمتع بوقت حر.

ويؤثر المستوى الثقافي للأسرة على عدد الساعات التي يقضيها كل فرد من أفرادها أمام التلفزة أو في الألعاب الالكترونية، وكذلك في اختيار أنواع البرامج، وأنواع الأفلام، وأنواع الموسيقى.....الخ[20].

ومن خلال بعض البحوث تؤكد العديد من الأسر أن حياتها اليومية لا تفلت من تأثيرات وسائل الإعلام، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال تواجد أكثر من جهاز تلفزة في البيت الواحد وفي أماكن مختلفة كالمطبخ وغرفة النوم...أي في غير الأماكن التي تعودت الأسر وضعها فيها، وتوفر العديد من الألعاب...الخ

حيث يستطيع الآن كل فرد أن يشاهد مواده من الأفلام والبرامج الموصلة وحده، بأي وسيلة يريد، في الوقت الذي يريد.وبهذا سيكون اجتماع العائلة، ولو بشكل عرضي، شيئا كان يتفق وتقنيات الزمن الماضي.

فقد كانت إحدى فضائل التلفزيون هو اجتماع العائلة وقت المشاهدة، في مكان واحد بعد أن فرض عليهم إيقاع الحياة المعاصرة السريع أن يذهب كل فرد من أفراد العائلة للعمل أو الدراسة ثم قضاء بعض الوقت، بعد ذلك، وغالبا في المساء، تتجمع العائلة أمام جهاز الاستقبال التلفزيوني القابع في أحد أركان المنزل ليشتركوا في عملية المشاهدة وربما يتداولوا ولو بشكل عرضي أمور حياتهم.وجاءت التقنية الرقمية لتجعل عملية الاستقبال شيئا مختلفا عما كانت عليه على مدى عقود من الزمن.

ونتيجة لما وفرته التقنية الرقمية من مواد صورية هائلة وألعاب فيديوية سهلة المنال، فقد استمال ذلك المراهقين والشباب وغيرهم فعزفوا، إلى حد ما عن القراءة والمتابعة.وتشير الأبحاث إلى عدم تحسن مهارات القراءة بين المراهقين في حياة الأطفال الذين يخصصون كميات من الوقت لألعاب الفيديو والمشاهدة عبر الانترنت، وإرسال الرسائل الالكترونية.إن أساليب الحياة السريعة إضافة إلى وجبات إعلامية ثقيلة من الفورية البصرية، أنتجت عقولا لا تتناسب مع أشكال التعليم الأكاديمي التقليدية .

إن المشاهدة التلفزيونية في معظم البلدان العربية تحتل المراتب الأولى في الممارسات أو الاهتمامات الثقافية لعامة الناس و خصوصا الأطفال و اليافعين الذين تبلغ نسبة مشاهدتهم للتلفزيون أربع ساعات في اليوم، مما يشكل تأثيرا سلبيا محتملا على ملكات التحصيل المعرفي عند الناشئة وعلى قدرات التخيل لديهم.

وتؤكد عديد من الدراسات الميدانية التي أجريت بالخصوص في فرنسا، أن الطلاب المدمنين على مشاهدة أكثر من أربع ساعات كانت نتائجهم المدرسية ضعيفة ويعودون الأكثر تعرضا لأمراض السمنة، فضلا عن كونهم مطالعين كسالى.لذا يجب اعتبار أن حالات الإدمان التلفزيوني، تخص المنطقة الغربية، إذ تفيد دراسات أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية على عينة من الأسر الأمريكية

أن معظم مستجوبين صرحوا أن النشاط العائلي الوحيد الذي تشارك فيه خلال الأسبوع يتمثل في مشاهدة التلفزيون.

ويصف عدد من الباحثين ثقافة التلفزيون بـ"ثقافة الجمهرة" التي بدأت تنتشر خاصة مع انتشار المسلسلات والبرامج التلفزيونية الأمريكية والتي أثرت جدلا عريضا في أوروبا.وتم الحديث حينها عن حق الاستثناء الثقافي لحماية الثقافة الوطنية من أنماط السلوك والتفكير الذي تروج لها تلك البرامج.ومع عولمة الصورة وانتشارها ومركزيتها ثم توظيفها لتطويع المتفرج وتطبيعه مع المحتوى المقدم.

ومع برامج "تلفزيون الواقع" (تقدم عدد من برامج "تلفزيون الواقع" نمط تنشئة غير مألوف يزاحم التنشئة المعتمدة في المؤسسة العائلية والمؤسسة المدرسية، بالإضافة إلى الترويج لمبدأ التجسس أو التلصص على الحياة الخاصة وعلى الاختلاط بين شبان وشابات يتم وضعهم في فضاء ضيق كامل فترات النهار).الذي نعته بعض الباحثين" تلفزيون بيع الأحلام الجماعية" أو " تلفزيون القمامة" يتم الترويج لثقافة جديدة لا تعتبر العمل والكد والموهبة عناصر أساسية لصنع مشروع حياة، بالإضافة إلى التطبيع مع الانكشاف، إذ يتم القبول بكشف الذات وانتهاك الحرمات الخاصة بدون أي مساءلة.ورغم إنتاج نسخ لهذه البرامج في التلفزيونات العربية إلا أنه لا تتوفر لدينا دراسات عربية جادة تناول أبعاد " تلفزيون الواقع" [21].

إن محاولة تقصي التأثيرات المحتملة لـ"تلفزيون الواقع على العلاقات الأسرية والاجتماعية تفضي إلى تبين مساهمة هذه البرامج بصيغة أو بأخرى في "تنميط إعلامي للعالم" أو "عولمة ثقافية" للمجتمعات الإنسانية والتي تعيش على وقع عصر الصورة التلفزيونية التي أشار إليها عالم الاجتماع الفرنسي "جورج بلانديه" بلفظة "هيمنة وسائل الإعلام"، وحولت هذه البرامج كل شيء قابلا للفرجة مع الترويج لنمط المجتمع الاستهلاكي التجاري[22].

كما أصبحت الصورة التلفزيونية ظاهرة اجتماعية كلية تولد أحاسيس متناقضة، واعتبر المختصون والمحللون هذا العصر "عصر سطوة الإعلام" متحدثين عن "صورة تلفزيونية".تتحكم في الذوق الجماعي لأنها أكثر نفاذا إلى عقل الإنسان وادراكه ومخيلته وحواسه، فبإمكانها صنع ذاكرة جديدة للمجتمعات تقطع مع ذاكرتها الجماعية التي تشكل أصل هوياتها الفردية والجماعية.

الخاتمة

خاتمة القول إن هنالك الكثير من محاولات التنبؤ لما يمكن للتلفزيون أن يحدثه من تأثيرات بعد أن أصبح بوسع الناس في كل العالم استقبال القنوات الفضائية في منازلهم ومن المنتظر أن يتسع تعرض الجمهور العربي لقنوات أخرى لكن الفكرة الأساسية التي يتقاسمها الجميع هو مجتمع المعرفة والذي ارتبط ارتباطا

وثيقا لمفهوم الحداثة بإعادة تركيب الاقتصاد وهيكلة المجتمع حسب أنماط وأنساق جديدة .

ورغم ايجابياته فإن له الكثير من السلبيات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، تلك السلبيات لا يمكن التخلص منها بالانغلاق على النفس، بل من خلال تفاعل حقيقي وفعال يحقق الفائدة من هذه الثورة ومحاولة التغلب على تلك السلبيات.فالقضية أولا وأخيرا لا تتعلق بالأداة التي بين أيدينا ولكن بمن يستخدم الأداة وكيف يستخدمها.

❖ **هوامش البحث**

(1) عماد عادل أبو مغلي: العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم، دار الكندي، للنشر والتوزيع، الأردن، 2009، ص ص30 - 31.

(2) مراد زعيمي، علم الاجتماع، رؤية نقدية، مخبر علم الاجتماع الاتصال، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2004، ص 199.

(3) عماد عادل أبو مغلي:مرجع سبق ذكره، ص31.

(4) إبراهيم مذكور: معجم العلوم الاجتماعية، دار الشروق، بيروت، 1975، ص 403.

(5) فاروق العادلي: علم الاجتماع العام، الطبعة الثانية، دار زهران، 1994، ص ص 263-264.

(6) عاطف غيث، محمد: قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص437.

(7) عبد الله محمد عبد الرحمان: علم الاجتماع، النشأة والتطور، دار المعرفة الجامعية، الازاريطة، مصر، 2005، ص. 236.

(8) المرجع السابق، ص 238.

(9) عصام عيسى علوان: التلفزيون في العصر الرقمي في مواجهة التغيير، مقال منشور على شبة الانترنت، على صيغة pdf، ص2.

(10) المرجع السابق، ص 5.

(11) حلمي خضر ساري:تأثير الاتصال عبر الانترنت في العلاقات الاجتماعية(دراسة ميدانية في المجتمع القطري)، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الأول+الثاني، 2008، ص302.

(12) المرجع السابق، ص303.

(13) المرجع السابق، ص304.

(14) المرجع السابق، ص305.

(15) المرجع السابق ، ص ص 307-308.

(16) المرجع السابق، ص308.

(17) عصام عيسى علوان: مرجع سبق ذكره، ص 118.

[18] المرجع السابق، ص 120.
[19] يسري خالد ابراهيم: التلفزيون الرقمي والتلفزيون التفاعلي تقنيات عملية الاتصال وتطورها دراسة نظرية في بنية الاتصال الحديثة، الباحث الإعلامي، العدد (9-10) أيلول 2010، ص ص 248-249.
[20] مفيدة العباسي: أثر التقنيات الحديثة على العلاقات الاجتماعية، مؤتمر الأسرة والإعلام العربي، نحو أدوار جديدة للإعلام الأسري، الدوحة، قطر، 2010، ص 10.
[21] المرجع السابق، ص 11.
[22] المرجع السابق، ص 12.